

## اللغة الصوفية وتجلياتها في فكر المقاومة

عند الأمير عبد القادر

د. بن طرات جلول ، أستاذ فلسفة

مخبر دراسات الفكر الاسلامي في الجزائر

جامعة الجيلالي لياابس ، سيدي بلعباس

يمثل التاريخ في حركته حوارا بين الماضي والحاضر ، أين تظهر طبيعة هذا الحوار حاضرة في تجربة الأمير عبد القادر التي اختزلت كل القيم التي أنتجت فكره وسلوكه ، وجسدت علاقته بالمقاومة التي تمثل حجر الأساس لشخصيته وهويته ، لاسيما تلك اللغة الصوفية التي تشعب بها لتعزيز فكر المقاومة وترشيد قيم الثورة في خطابه السياسي والعسكري ، ومن ثم فقد يغدو هذا الخطاب نظرية في السلوك والمعرفة حاول من خلاله أن يسمو روحيا وتربويا واجتماعيا لإقامة مشروعه ، الذي خلق في رحم هذه اللغة الصوفية واكتملت ملامح بنائه في تلك المقاومة التي استشرفت من خلالها الجزائر مستقبل الثورة ، للتحرر من وحشية الاستعمار وتجاوز أشكال القمع والبؤس والفقر التي تعيش معها الشعب الجزائري ضمن تاريخ نضاله . ومن هذا المنظور فإن ما انطوت تحته تجربته التاريخية قد يعكس تصوفه الذي اختزل قيم الزهد والورع وديمومة مناجاته الربانية التي حددت مفهوم القيادة في مظهرها السياسي والعسكري والديني ، ولهذا الغرض فقد سلك الأمير هذا النهج ليزود الجنود بقوة روحية تضاف إلى القوة العسكرية ، فقد استطاع فكر المقاومة عنده أن يجمع بين الطاقة الحسية والمعنوية لتصبح قوة الخطاب الصوفي عند الأمير كنموذج لأصالة الجهاد الإسلامي التي استمدت عناصرها من اللغة والدين والوطن لتتمثل قراءته العميقة لطبيعة تسيير أمور الدولة وفق الأسس التي وضعها الأمير عبد القادر ، وبذلك فإن القيم التربوية التي استوعبها لم تولد من العدم وإنما هناك جملة من العوامل قد ساهمت في تكوين وجدانه خاصة تلك الكتابات القرآنية التي رسمت طريقا تعبديا للأمير شكلت رحلته التصوفية وهو ما يعكس الترميز اللغوي في قصائده الشعرية عندما دافع عن البدو بخلاف الحضرة وتعزيزه للقيم الجمالية التي تحملها قوافي الشعر والخيمة عكس البيوت المصنوعة من الطين والحجر وهو ما يظهر من خلال أبياته الشعرية.<sup>(1)</sup>

يا عاذرا لامرئ قد هام في الحضر  
لا تذا من بيوتنا قد خفّ حملها  
وعادلا لمحب البدو والقفر  
وتمدحن بيوت الطين والحجر  
لو كنت تعلم ما في البدو تعذرني  
لكن جهلت وكم في الجهل من ضرر

هذه اللغة الشعرية تحمل رؤيته الصوفية التي جعلت منه إنسانا محافظا وهب حياته لدينه ووطنه وهذا ما يعكس شخصية الأمير التي أنصفها قادة الاستعمار الذين عجزوا عن مقاومته ، فقد حمل التاريخ عدّة شهادات حية تعكس تمسك الأمير بمبدأ تقرير المصير والدفاع عن مكتسبات المقاومة ، وهو ما حملته على إرساء دعائم هذا الفكر ، إذ تركت التنشئة الأسرية لأبيه "محي الدين" أثرا تربويا في نفسيته ، أين يظهر ذلك جليا في هذا السياق التاريخي : "وفي الخامسة من عمره التحق الأمير عبد القادر بمدينة والده في "القيطننة" عام 1812/1227 ، وبدأت مواهب الطفل تظهر حيث بذل والده قصارى جهده في تثقيف ولده لما آنس فيه علامات التفوق والذكاء ، فتمكن الفتى في مدة وجيزة من اكتساب جانب عظيم من العلم وحفظ القرآن الكريم حفظا جيدا وهو لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره كمدرس للحديث وأصول الشريعة ومبادئ الفقه ، تلقى ذلك عن والده وغيره من علماء بلده ، ولما أصبح في سن الرابعة عشرة حصل على تسمية "حافظ" أي أنه أصبح يرتل القرآن على ظهر قلب في المساجد والمناسبات ..<sup>(2)</sup> هذه التربية القرآنية حملت دلائل التصوف التي ساعدته على إقامة منظومة سلوكية رفعت من مكانته الدينية والعلمية وهو ما أخذه على عاتقه في الالتزام بالقرآن والجهاد في سبيل الله ، وقد اختزل ذلك بشكل صريح في قوله : " .. لن آخذ بقانون غير القرآن لن يكون مرشدي غير تعاليم القرآن ، القرآن وحده فلو أن أخي الشقيق قد أحل دمه بمخالفة القرآن لمات ..<sup>(3)</sup> ، هذه الشهادة الصريحة قد تجعل من التصوف رمزا للجهاد والمقاومة ، ولذلك اعتبر الأمير عبد القادر اللغة الصوفية بمثابة انتصار روحي للحق على الباطل ، أي رفض مصادرة وجود الشعب الجزائري واستلاب حريته وكرامته ، ولهذا الغرض انصرف إلى إحياء الخطاب الصوفي وعدم التنكر لتعاليم الشريعة الإسلامية وهذا ما يعكس أصالة فكر المقاومة الذي يقوم على التسامح والتواصل مع الآخر دون التنازل عن الثوابت العقائدية والجغرافية للوطن ، فطبيعة هذه الأفكار والمواقف التاريخية للأمير قد استأصلت كل الأساليب الاستعمارية لاسيما فكرة التبشير والإدماج وسياسة التجهيل لتظهر تجليات تربيته الصوفية التي حملتها قيم ثورة الفاتح من نوفمبر التي اعتبرت نهج المقاومة عند الأمير بمثابة نموذج للتحرر كونه اعتبر حقوق النضال للشعب الجزائري حجر الأساس لعناصر المقاومة وبرنامجا احتفظ بأصوله التعليمية والتربوية في المنهج الصوفي الذي حافظ على العادات والتقاليد لمقاومة المشروع الاستعماري في الجزائر ، أين انصرفت فرنسا إلى محاولة تمييع وتفكيك أخلاق الشعب الجزائري ضمن أساليبها التعليمية التي حملت ثقافتها السياسية والعسكرية

والدينية وعملها على تحويل المساجد إلى كنائس ، ومن هذا المنظور فإذا استقرأنا التاريخ فإن رسالة الأمير لا تخرج عن خطاب "مصالي الحاج" الذي أكد في قوله : "إن شعبا يطلب الاندماج في شعب آخر هو شعب قطع الصلة بينه وبين ربه وبينه وبين تاريخه وأجداده، وبينه وبين أبنائه من بعده، ونحن الجزائريين لنا تاريخ ماجد ولغة وذاتية مقدسة وضمير حي، وهذه كلها تأبى أن نقطع الصلة بها ونطلب الالتحاق وتندرننا إن فعلنا قبرا محفورا وكفنا منشورا".<sup>(4)</sup>

إن المتأمل لشخصية الأمير عبد القادر ينطلق من تجلي لغته الصوفية في إعادة ترسيخ ثقافة المعتقد الديني وبلورة كل التعاليم القرآنية لمقاومة الوجود الاستعماري وكل مظاهر الغزو الثقافي والفكري التي صاحبت هذا الوجود، ومن ثم فإن فلسفة الأمير انطلقت من تقويض واجهاض هذه الثقافة الاستعمارية من خلال طبيعة الإعداد الروحي للجندي الجزائري والاستئناس باللغة الصوفية لترقية فكر المقاومة وتزويد كل مناضل بأدوات استراتيجية تمكنه من السمو بعاطفته الثورية والانفتاح على قضايا التحرر العالمية، ففكر المقاومة عند الأمير قد اعتبر مسألة التوازن بين المادة والروح للنفس أساس صفائها ونقاؤها، وهو ما ينطبق مع قيم بيان أول نوفمبر وميثاق الثورة، وبذلك فإن كل الكتابات التاريخية التي أرخت لفكر الأمير تجمع على حقيقة مفادها أن لغته الصوفية قد تمكنت من استقطاب كل القبائل الحدودية وإثارتها على العدو، وهذا الدور القيادي قد وسع من دائرة المقاومات الشعبية في الجزائر شرقا وغربا وشمالا وجنوبا، ومن هذا المنظور فإن نشأة الأمير الاجتماعية قد استوفت كل عناصر المقاومة، وقد كانت أصالة هذه النشأة حاضرة من خلال مواقفه التي تعكس مرحلة النضج والرشد التي وصل إليها، إذ جاء على لسانه في تفسير قوله تعالى : "ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين" اعلم أن العلل والأمراض يراد بها علل القلوب وعلل النفوس وعلل الأجسام، والعلل في القرآن شقاؤها هي علل النفوس ، وتلك العلل أطباؤها المشايخ أصل التربية العارفون بالله تعالى أو معرفة علل النفوس وطبها ركن من أركان المعرفة بالله ، وعلل الأجسام أطباؤها العارفون بعلوم الطبيعة..<sup>(5)</sup> ، فطبيعة هذا التفسير يوضح بشكل جلي اهتمامه الفائق بهذا المقام التعبدي الذي استسلمت له ذاته ليصبح قدوة للثوار الأحرار الذين استأنسوا بهذا النموذج الروحي، أين كان لشيوخ الزوايا والعلماء والأعيان دورا رساليا في تزويد الأمير بكل الأفكار والقيم التي تعد إرثا روحيا ومنطلقا ربانيا لكل الوصايا الصوفية التي أسست لبيعته التي تقوم أولا على القيام بشعائر الملة المحمدية كشرط لمقاومة الاستعمار الفرنسي، وهو ما يختزل رسالته إلى سائر القبائل العربية والبربرية ونصها : " الحمد لله إلى قبيلة كذا... خصوصها أشرافها وعلماءها وأعيانها وفقكم الله وسدد أموركم وبعد، فإن أهل معسكر وغريس الشرقي والغربي ومن جاورهم واتحد بهم وقد أجمعوا على مبايعتي وبايعوني على أن أكون أميرا عليهم، وعاهدوني على السمع والطاعة في اليسر والعسر، وعلى بذل أنفسهم وأولادهم وأموالهم في إعلاء كلمة الله، وقد قبلت بيعتهم وطاعتهم، كما أنني قبلت هذا المنصب مع عدم ميلي إليه، مؤهلا أن يكون بواسطته لجمع كلمة المسلمين ودفع النزاع

والخصام من بينهم ، وتأمين السبل ومنع الأعمال المنافية للشريعة المطهرة وحماية البلاد من العدو وإجراء الحق والعدل نحو القوي والضعيف ، فلذلك ندعوكم لتتحدوا وتتفقوا جميعا ، واعلموا أن غايتي القصوى اتحاد الملة المحمدية ، وعلى الله اتكالي في ذلك كله ، فاحضروا لدينا لتظهروا خضوعكم وتؤدوا بيعتكم ، وفقكم الله وأرشدكم ...<sup>(6)</sup> وبذلك فإن ما انتهى إليه هذا النص هو أساس تنظيم شؤون الدولة على أساس عقائدي يحمل ملامح الخلافة الإسلامية يكون فيها نظام الحكم قائما على الحق والعدل ، هذه القيم هي امتداد لتلك اللغة الصوفية التي تمثل روح فكر المقاومة عنده ، هذه المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد تجعل من خطابه السياسي والعسكري والديني منهجا قائما بذاته سيحدد مستقبل المقاومة ومصيرها في الجزائر ، ومن هذا المنظور فإن طبيعة الثقافة الصوفية التي عززت ملامح هذا الخطاب في تجربة الأمير التاريخية لا تنفصل عن معركة الجزائر الكبرى في التحرر ، هذا القاسم المشترك قد ساعد كل أفراد الشعب الجزائري على التواصل فيما بينهم ومن ثم تعزيز فكرة الجهاد في الأوساط الشعبية ، وقد كان لأفكار الأمير نصيبا في ذلك ، وبالتالي فإن المقاومة تمثل اللسان الذي كان يتحدث به مع أعدائه مما شكل عائقا أمام الاستعمار الفرنسي في إضعاف حركة المقاومة عند الأمير ، إلا أن هذه القوة لم تستمر كثيرا ، " إذ لم يتمكن الأمير من إنهاء المهمة الوطنية التي شرع فيها ، ومواصلة إعادة بناء الدولة الجزائرية على أنقاض الفراغ السياسي والتدمير اللذين لحقا بالبلاد بسبب نكث المعاهدات التي أبرمت مع قادة القوات الفرنسية والتحرشات المستمرة بأطراف دولته لإنهاكه ومنعه من تدعيم مؤسساته وتطويرها ونشر الأمن والاستقرار في ربوع البلاد ، مما اضطر الأمير إلى الإقدام على التضحية الكبرى وهي قبول الاستسلام لوقاية شعبه من الإبادة والتدمير الكامل بعد اليأس الذي سببه تأمر وخديعة قادة بعض الممالك المجاورة ...<sup>(7)</sup> ، ومن هذا المنظور فإن تلك الخيانة لم تسقط مشروع الدولة الجزائرية ولم تزعزع المقاومة الشعبية ، وإنما شكل قوة ثانية حولت هذا الاستسلام إلى نصر تاريخي ، وهذا ما يعكس أثر التجربة الصوفية في توجيه الكفاح المسلح وهو ما يوضح عالمية الثورة ، وقد كان لفكر المقاومة عند الأمير نصيبا في ذلك ، أين أقام نظاما اجتماعيا صالحا وحكما سياسيا راشدا طبقا لقيم الصوفية التي استلهمها من الشريعة الإسلامية وهو ما يؤكد هذا الطرح".... يتأكد لنا حكمه الراشد المستمد من تجارب الحكم الإسلامي في عصر الخلفاء الراشدين ، ويتجلى ذلك في إعطاء صفة الشرعية لنظام حكمه ، ومساءلة الحاكم من قبل الرعية ، وتكريس مبدأ الفصل ما بين السلطات وسيادة القانون على الجميع وفق ما تقتضيه أحكام الشريعة الإسلامية والتكفل بالعدالة الاجتماعية والمساواة بين الناس... ومحاربة كل أشكال التبذير والإسراف لنفقات الدولة وعدم استغلال السلطة للمنفعة الخاصة...<sup>(8)</sup> ، هذه الخصوصيات التي ميّزت المفهوم الراشد للحكم الراشد قد حملت حضور التصوف كلفة قد أسست لتواصل فكره مع الآخر... وفي هذا الإطار الاستمولوجي يظهر مدى حرص الأمير باعتباره عالما وفقهيا سنيا وطرقيا ملتزما بالكتاب والسنة والسلف الصالح ، وشاعرا وأديبا

باللسان العربي الفصيح وسياسيا ومجاهدا على تنمية استقلالية أفكاره وسلوكه ، وهذا من منطلق أن الدين والثقافة الوطنية في إطار تجربته المثالية الواقعية إن صح هذا التعبير هي بامتياز نظرية في السلوك أكثر من كونها نظرية في المعرفة ، قد لخصتها مقامات الصوفية صراحة أو ضميا في أكثر من خطاب ومؤلف في مفهوم التقوى ( الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والقناعة بالقليل ، والاستعداد ليوم الرحيل " بلا إفراط أو تفريط"<sup>(9)</sup> .

لقد انصرف الأمير عبد القادر إلى إعادة تنميط القيم الصوفية لترشيد لغته وتأسيس فكر المقاومة لإنتاج مفهوم جديد للثورة تنطلق جذوره من تصور الأمير ، وهو ما جاء على لسانه : " ... يجاهد المجاهد نفسه ، أي حقيقته بما هو ، وهي الحقيقة السارية في الإنسان التي قال فيها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قدوة المجاهدين " من عرف نفسه عرف ربه " ، وهي المسماة بالبرزخ وبالصورة الرحمانية وبمرتبة الأسماء والصفات ، وغير ذلك من الأسماء بحسب ما لها من الوجود والاعتبارات...<sup>(10)</sup> وقد يلتقي هذا المفهوم مع رؤيته الثورية التي جعلت من خطابه الصوفي مقدسا ، ومن فكر المقاومة عنده ثورة عرفانية قلبية وهو ما يختزل قوله : " ... وطريقة توحيدنا ما هي طريقة المتكلم ، ولا الحكيم المعلم ولكن طريقة توحيد الكتب المنزلة وسنة الرسل المرسله وهي التي كانت عليها بواطن الخلفاء الراشدين والصحابة التابعين والسادات العارفين وإن لم يصدقوا الجمهور والعموم ، فعند الله تجتمع الخصوم...<sup>(11)</sup> ، وضمن هذه الرؤية فإن لغة الأمير الصوفية موجهة إلى تحرير النفس البشرية من الهوى والانقياد لطاعة الله ورسوله ، وهذا هو الجهاد باعتباره أعلى مقامات العبودية التي يسلكها المتصوف قصد إصلاح ظاهر الجوارح وباطنها ، ولهذا الغرض فإن التعايش الروحي مع الذات قد يعبد الطريق لكل مقاومة من شأنها أن تستوعب لغته الشعرية في إعداد الفعل الثوري المقاوم وهو ما يمثل دعوة صريحة تنطلق من نشر العقيدة التوحيدية تكون مقومات الهوية الثقافية مستمدة من القيم الصوفية التي تمثل مرحلة من مراحل تشكيل الوعي التحرري والوطني ، ومن ثم تجسدت فلسفة الأمير في مطابقة المرجعية الدينية الإسلامية مع خطاب المقاومة الذي يعد أسلوبا من أساليب تعزيز الدور القيادي للزوايا التي ساهمت في نشر عقيدة الأمير عبد القادر وربطها بكل فكرة أو سلوك موجه إلى إضاءة مقاصد الثورة التحريرية التي تعد نظرية ثابتة في الانتماء والاعتقاد ، ولهذا الغرض فإن طبيعة المقاومة الشعبية قد حافظت على قيم التعليم الصوفي وتكييف كل تنظيم ديني واجتماعي وتربوي مع مبادئ لغة الأمير الصوفية التي نهض على ضوئها مشروع التحرر الوجداني الذي تنطوي تحته مكونات الثقافة الإسلامية الصحيحة وهو ما سيساهم في تجديد فهم الهوية الوطنية ورفع طابع التقليد عن التصوف ، ومن هذا المنظور فإن دعم قيم الثورة وصياغة ملامح الشخصية الوطنية ستستأنس به الزوايا في دورها التاريخي ، وهو ما جاء على لسان محمود بوعبياد في قوله : " ... وما يجب أن نسجله في هذا المقام بكثير من التقدير الدور الذي لعبته الطرق بعدما تمكن العدو من التغلب على كل الثورات المسلحة ... وقد واصلت الزوايا مقاومتها بلم شتات الشعب المقهور ،

تطعم المحرومين وتواسي المظلومين، وتزرع آمال استرجاع الحرية والسيادة ، وتقوم بالمحافظة على المقومات الدينية والأخلاقية وذلك بتحفيظ القرآن الكريم ونشر اللغة الوطنية ونشر تعاليم الدين الحنيف ، فمما لاشك فيه أن ديمومة الهوية الوطنية واللغة العربية والديانة الإسلامية في هذا الجزء من العالم يعود فضله بالدرجة الأولى إلى الزوايا المنتشرة في مناطق البلاد كلها...<sup>(12)</sup>

إن اتساع رقعة الجهاد المقدس الذي قاده مشايخ الطرق الصوفية قد كشفت عن الدور القيادي للأمير عبد القادر في نمذجة فكر المقاومة والانصراف إلى تعزيز الطابع القومي والعالمي لقيم التحرر الوطني التي اختزلت نضج هذه التجربة في اعتبار تعاليم القرآن والسنة جهاز مناعة أخلاقي ونظام وقائي للهوية الإسلامية التي استلهم منها الأمير نضاله التاريخي وهو ما يعزز شهادة المؤرخ الفرنسي "مارسيل غيميري" في قوله : "...إن معظم الثورات التي وقعت خلال القرن التاسع عشر في الجزائر كانت قد أعدت ونظمت ونفذت بوحى من الطرق الصوفية ، فالأمير عبد القادر كان رئيساً لواحدة منها وهي الجمعية القادرية ، ومن بين الجمعيات المشهورة التي أدت دوراً أساسياً في هذه الثورات : الرحمانية والسوسية والدرقاوية والطيبية...<sup>(13)</sup> ، ومن هذا المنظور تبقى هذه الشهادة معلماً تاريخياً تفاعلت معه أفكار دعاة فكر النهضة العربية الإسلامية الذين اعتبروا تجربة الأمير الصوفية نتاجاً لتلك الأدوار التربوية التعليمية التي تميزت أثناء ممارسته لخطابه العرفاني والارتقاء إلى مقام الخلوة والمناجاة والمحبة والذكر والفكر والتسليم ، كل هذه الألفاظ الصوفية قد تجلت في فكر المقاومة عنده الذي بدأت ولادته من التصفية والتجرد من أوامر الجسد وشهواته وميوله ، وهو ما يمثل درجات الكمال الأخلاقي التي عرفها الأمير عبد القادر عبر رحلته الصوفية ، وكل أشكال المقاومة لمظاهر البذخ والترف والإسراف في حياته ، أين انتقل مفهوم التصوف في تفكير الأمير الجهادي من نظرية في السلوك إلى منظومة للقيم الثورية التي عززت دافعية التحرر الوطني عند الشعب الجزائري لتسمو بذلك لغته الصوفية في المحافظة على أهداف المقاومة الشعبية ودحض كل سياسة استعمارية متوحشة في الوطن العربي .

## الإحالات والهوامش:

- 1- الأمير عبد القادر، الديوان، جمع وتحقيق: العربي دحو، منشورات دار الثقافة، معسكر، الجزائر، ط2، 2005، ص47.
- 2- صالح فركوس، تاريخ الجزائر من ما قبل التاريخ إلى غاية الاستقلال، دار العلوم، الجزائر، ط1، 2005، ص200.
- 3- المرجع نفسه، ص201.
- 4- المرجع نفسه، ص43.
- 5- الأمير عبد القادر، المواقف، ج1، الجزائر، 2009، ص69.
- 6- إبراهيم سياسي، المقاومة الشعبية، دار مدني، الجزائر، ط1، 2008، ص16.
- 7- محمد العربي ولد خليفة، الثورة الجزائرية، معطيات وتحديات، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط1، 1991، ص51.
- 8- المجلة المغاربية للدراسات التاريخية والاجتماعية، منشورات مخبر الجزائر، تاريخ ومجتمع في الحديث والمعاصر، المقال: الفكر الوطني والتحرري عند الأمير عبد القادر، مجاود محمد، مكتبة الرشد، الجزائر، العدد 03، 2011، ص17.
- 9- المرجع نفسه، المقال: الفكر الوطني والتحريري عند الأمير-مقاربة سوسيو اتصالية، مرزوقي بدرالدين، العدد 05، 2012، ص27.
- 10- صاري حكم، التصوف، مفهوم جديد للثورة، الملتقى الوطني لامجاد الفكر الصوفي في طبعته الرابعة، تموشنت، الجزائر، 2014، ص58.
- 11- المرجع نفسه، ص58.
- 12- صاري حكمت، نبذة تاريخية عن زاوية سيدي بوعزة الملتقى الوطني لامجاد الفكر الصوفي في طبعته الثالثة، تموشنت الجزائر، 2012، ص15.
- 13- عبد الجليل منقور، الاتجاه الصوفي في المنظور الغربي، قراءة في موقف الاستعمار الفرنسي من الصوفية الجزائرية، المرجع نفسه، ص143.